اي بك نسحق اعداءنا . فتُثبت هذه المقارنة العلاقة بين الصليب الصيني والصليب العراقي . وكان المرسلون من الناطرة الى الصين اصلهم من العراق فلا عجب من الشبه بين تصاويرهم للصليب المقدّس في وطنهم وغربتهم

الشيخ سليم باز

الفقيه المشترع الكبير

(١٨٥٩–١٩٢٠)

بقلم جناب شقيقه الدكتور جرجس باز

هو سليم بن رستم بن الياس بن طنوس بن باز ابي شاكر كرم من سُراة جبل لبنان صاحب المؤلفات الفقهية وركن اركان العدلية في المملكة العثمانية

مولده واخلاقه وصفاته

وُلد رحمه الله بمدينة بيروت في اليوم الخامس من شهر حزيران سنة ١٨٥٩ للمسيح من ابوَين فاضلَين عريقَين في الحسب والنسب . لأجداده الكرام شهرة عريضة وصفحةٌ بيضاء في تاريخ جبل لبنان (١ تشهد لهم بوسع الجاه اثارُهم (٢ فهو

---

١) انظر تواريخ الامير حيدر شهاب وميخائيل الدمشقي وطنوس الشدياق والأمير (من زوق مكايل بكسروان) وغيرها ٢) لأجداد صاحب الترجمة ثلاثة قصور فخمة في لبنان وهي قصر الشيخ جرجس باز بدير القمر لم يزل قائمًا على نكبات الزمان . وقصران بمدينة جبيل احدهما لاخيه الاكبر الشيخ طنوس باز موقعه شمالي المرسى (الميناء) والآخر لاخيه الاصغر الشيخ عبدالاحد باز موقعه شمالي كنيسة القديس يوحنا الشهيرة لم يُبقِ منها الدهر الا أطلالًا بالية :

عصامي عظامي كريم العرق زكي المنبت ظهرت عليه مخايل النجابة وملامح الفطنة والذكاء منذ نعومة اظفاره . فلما ناهز التاسعة من عمره ادخله ابواه سنة ١٨٦٨ مدرسة المرسلين اليسوعيين في غزير وكانت في ذلك العهد من اشهر مدارس سورية . فقرأ على اساتذتها اللغتين الفرنسية والعربية والعلوم العصرية الرياضية والتاريخية والمنطقية والفلسفية والطبيعية والنظم في اللغتين المذكورتين وفي كل ذلك كان المجلي في حلبة الرهان يُشار اليه بالبنان فضلاً عما كان عليه من حسن الادب ولين العريكة ولطف المعاشرة وخفة الروح حتى كان رفاقه يستبقون الى الالتفاف عليه في ساعات اللهو طلباً للاستفادة منه . ولما أتمّ دروسه العالية بمدرسة غزير سنة ١٨٧٥ ودّعها بقصيدة فرنسية عامرة الابيات سمّاها «الوداع» اصابت لدى سامعيها حظاً وافراً من الاستحسان . وفاز بقصب السبق فنال جائزة الفخر ولم يكن سواها بميدان السباق

ولما لم يكن ممن يستنيمون الى الفوز وكانت رغبته في العلم تشتدّ يوماً فيوماً شمّر عن ساعد الجدّ في طلب المزيد فادخله والداه سنة ١٨٧٥ مدرسة عين ورقة بكسروان (جبل لبنان) لتخريجه في الآداب العربية . فكان فيها عنوان الاجتهاد ومشكاة الذكاء ومثال الرزانة فغادرها في آخر السنة المذكورة فائزاً بالقِدح المعلّى من آداب لغته العربية

ان آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

تاريخ بناء الاول من هذه القصور سنة ١١٩٩ هـ كما تؤيده كتابة على عتبة احدى غرف القصر. والثاني سنة ١٢١٠ هـ والثالث سنة ١٢١٧ هـ كما يستدلّ ببيتين من الشعر كانا على عتبة قصر الشيخ عبدالاحد نظمها صورة اسد مكبَّل بالحديد وهما :

بُشراك انّ السعد باليُمن وفدْ بنايةٍ دامت بعزّ للأبدْ
والبأس في تاريخه أسر الأسدْ في دار سعدٍ شادها عبد الاحدْ

والعتبة المشار اليها خطفها من محلها الامير بشير عمر شهاب لما ان نكب البازات سنة ١٨٠٧م كما هو مشهور وعتب بها مدخل ميدان قصره في بيت الدين (بقرب دير القمر) بعد ان بَتَرَ منها البيتين المذكورين وبقيت هنالك الى ان شبّت النار في ١٨ تموز سنة ١٩١٢ م في مخزن «البارود» الملاصق للمدخل فطارت العتبة في جملة ما اطارت النار من الابنية المجاورة فاشطرت شطرين ولم تزل على هذه الحالة في قصر بيت الدين . اما السعد المذكور في البيت الثاني فهو الشيخ سعد الخوري مدير الامير يوسف شهاب احمد ولاة لبنان لمع اليه الشاعر لان اصل الدار له وهيا عبدُ الاحد ابن شقيقته فشاد قصره مكانها

وفي سنة ١٨٧٦ قرأ الفقه الحنفي على المرحوم الاسقف يوحنا حبيب الماروني مؤسس الجمعية الكرمية مدةً لا تزيد عن اربعة اوخمسة اشهر فقدّره الاستاذ قدره وأعجب بفهمه وذكائه فتحوّطه بالعناية التي هو اهلٌ لها وكان يقول عنه «ان ثبت الباز في المطالعة — ولست اراه الّا ثابتاً — كان نابغة العصر ودرّةً في جبين الدهر». فقبس من علمه في بضعة اشهر ما لا سبيل لغيره الى مثله في بضع سنين وكان لا يشذّ عنه شيءٌ من دقائق هذا الفنّ الموضوعة الى ذلك العهد فاجازهُ استاذهُ بشهادة تاريخها ٢٥ حزيران سنة ١٨٧٦ تكتفي بالإلماع اليها لانها على نمط ما سبق من امثالها. ومن ذلك الحين عكف على المطالعة والدراسة بهمّةٍ شمّاء تتعفر عندها الهمم حتى فاق اهلَ وطنه علماً وادباً وسبق من تقدمه من اساتذة القضاء. فهو الرجل الذي لم يعوّل على حسبه ونسبه بل انشأ لنفسهِ على عماد الفخر داراً عزّ في زمانها مثلها

ومما امتاز به (ذاكرته) وغضاضة ذهنه فانه قلما قرأ شيئاً ولو مرّةً واحدةً ونسيهُ فانهُ كان يروي الرواية من تواريخ الغربيين والشرقيين بتواريخها واسماء اصحابها واسماء بلدانها. وقد رأيته اذا اشار الى مادّةٍ من موادّ المجلّة او القوانين ذكر غالباً عدد الصفحة التي فيها تلك المادة. ومما رأيتُ منه انه عرّب مرّةً عن التركية لاحد وجهاء عشيت رسالةٌ برقيةٌ مطوّلة وردت اليه من وكيله في الاستانة فبعد ستين من الزمن اضاعها صاحبها وكان على عسيس الحاجة اليها فكتب له رحمه الله من ظهر قلبهِ الرسالة التركيّة وتعريبها. ومضت الايام ثم وُجدت الرسالة الاصلية فجاء ما كتب الباز مطبق ما فيها حرفاً بحرف. وكان الى آخر يوم من حياته يؤدّي ما استظهره من دروس المدرسة بتمامهِ لا يخرم منه حرفاً

ومن مميزاته (خطّه) في اللغتين العربية والفرنسية فانه كان جميلاً جداً ترى سطورهُ وحروفهُ متماثلة تجمع بينها تحانة واحدة بحيث لو خطّ كتاباً برمّته لظننته مخطوطاً ببريةِ قلمٍ واحدةٍ من اوله الى آخره

ومنها ايضاً (سرعة خاطره وثبات عبارته في الانشاء) فاني لم أرَ احضرَ منه جناناً ولا اربط منه جأشاً قلما كان ينشف عبارة مما كتب ويقيم غيرها. ومن نظر الى «مبرّدات» تآليفه التي لم تزل في خزانة كتبهِ شاهدةً بمقدرته في التأليف يكاد لا يرى فيها عبارةً ممحوّة او لفظةً محكوكةً ويُعجب من جمال خطّهِ وتنسيقهِ ونظافتهِ.

ولا ريبة في ان تلك النسخ الخطية هي باكورة دمعة اقلامه لانه كان رحمه الله عداداً حروفها يؤلف امام تلامذته واصحابه فكلما فرغ من تأليف «كراس» دفعه اليهم ليطالعوه وبدأ «بكراس» آخر. ولكثرة من البساطة والرونق والطلاوة ما لا تجده عند كثيرين من صفوة الكتّاب

اما (بلاغة ايجازه) في الكتابة فحدّث عنها ولا حرج ولاسيما في اللغة الفرنجية فكلٌ من عرفهُ من الكتبة المجيدين يشهد لهُ بانه كان يكتب في صفحة ما لا يكتبه غيره في صفحات . وكان لهُ جلَد عظيم على المطالعة والتأليف فعزَّ ان يكون مثله بين رجال عصره فانه كان يشتغل لا اقلَّ من اربع عشرة ساعة في اليوم ولم يدع الناس يكحل عينيه في العشيَّة الّا بعد المطالعة في مضجعه ساعةً زمانية وكان اذا طرق موضوعاً وفّاه حقه من البحث والوضوح

أما (لغته) فكانت عاميَّة بسيطة وكان يكره التصنُّع وبهرجة الكلام وتنسيقهُ وعلى بساطته في التعبير كان اذا تكلّم صاخت الاسماع اليه لسلاسةٍ في حديثهِ وسهولةٍ في تعبيره وبساطةٍ في لهجتهِ كأنه فردٌ من عامَّة الناس

قال عنه بعض الادباء وكان قد سمع به وقرأ تآليفه قبل ان يجمعه به مجلس: «زرتُ الباز وقد بلغني عنه مكانٌ جليل من الادب فوجدت العلم يتفجّر من جوانبه وعنده من المعرفة والعقل ما خُيّل لي انَّ الفقه حشوُ ثيابه ورأيته على جانب عظيم من الدعة ودماثة الخلق وهو بمكانه من علو المنزلة ووفرة العلم والادب. وكل ذلك لم يخالطه زهوٌ ولا عُجبٌ». والحق يقال انه ما تباهى قط بعلمه أو نسبه ولا قال قولاً تشمُّ منه رائحة الكبرياء

جاءهُ مرَّةً رجلان يستشيرانهِ في امرٍ بينهما فلما خرجا سمعتُ احدهما يقول للآخر: «ويحك أهذا سليم باز . لطالما في ضلالٍ عنه . فقال له رفيقه : هذا هو سليم باز بعينه . ما الذي حملك على الشك به . قال: يتكلم مثلنا كلاماً بسيطاً عاميّاً وهو قريب من القلب ليس عنده كبرياء . فضحك رفيقه وقال: هذه صفة العالم الكبير»

لما (مروءته) فيذكرها كل من جاءهُ في حاجة ولم يكن قط ليردَّ قاصداً مترفّعاً عن قبول اجر ام مكافأةٍ على مكانه من الحاجة الى المال

وكان المرحوم على جانبٍ عظيم من الصدق فيكره الكذّاب ويقول عنه:

هذا أجبن الناس . وكثيراً ما كان يردّد على اولاده واصحابه كما كان يردّد عليه ابوه قوله : «من يكذب الصبحَ يسودّ وجهُه العصر»

اما (نزاهتُهُ وعدله) فاشهر من نار على علم . اليك الحادث الآتي فتعلم مكانه منهما : تغيّر يوماً قائمقام الشوف في عهد المتصرف مظفّر باشا على احد عضوَي المحكمة لاسباب شخصية فحمل عليه حملةً شعواء ودفع المتصرفَ الى عزله واسناد المنصب الى واحدٍ من انسباء صاحب الترجمة — ذلك ليأمن معارضته لانه كان مفتش العدلية في ذلك العهد وله القول والرأي في القضائيات — فشاوره المتصرف في الامر على مألوف عادته . فنفر نفور الأبيّ وتقطّبت سحنته وقال : « ما ذنب الرجل ليُعزل . قال : القائمقامُ يشكو منه . قال : عليه رفع الشكوى فننظر فيها . قال : وهل فلان نسيبك . قال : هو ابن عمي واخو زوجتي . ولكن أنفي هذا حجّة للسكوت عن تضحية الرجل . قال : لا اقصد ذلك . فلما اوعز المتصرف الى القائمقام ان «ارفع الشكوى رسمياً» سكت وكان له في سكوته دليلٌ قاطعٌ على افترائه وظلمه فأُعجب بنزاهة الباز النادرة المثال . ومن ذلك الوقت اخذ الفقيد يسعى في نزع استبداد الولاة بموظفي العدلية فكتب الى وزيرها في الاستانة وكان لهُ منزلةٌ سامية عنده وهاج روح النخوة في صدور اعضاء المجلس النيابي فنشطوا الى موازرته وأجمعوا على أن لا يُعزل رجال العدليّة الّا بعد التحقيق عمّا يُتّهمون به والمحاكمة في المحاكم العدلية ان رأى المجلس داعياً اليها . وأيّدت ذلك عدلية العاصمة فجاء الامر طبق المراد . ودام الحال على هذا المنوال الى يوم الاحتلال الاجنبي في البلاد

ومما لا يجوز ضرب الصفح عنه (حبُّهُ لاساتذته) فكان يجلّهم ويرعى ذمامهم وينتهز الفرص لمكافأتهم او للدفاع عنهم وقصارى القول انه كان يبرّ بهم برّه بوالديه . دونك ما رأيتهُ رأي العين وكنتُ بجبيته فتعلم مقدار كرم اخلاقه : بينما كان مسوقاً الى الاناضول في الحرب الاخير كما سيجيء بك لقيَ بمدينة حلب احد اساتذته اليسوعيين وهو ارمني الاصل عثماني التبعة فاخبره ان الوالي ينوي ابعادهُ الى سيواس باعتبار كونه اجنبياً لانتمائه الى الرهبانية اليسوعية الكريمة وقد صدر اليه الامر وأُمهل ثلاثة ايام للرحيل . فاسرع رحمه الله الى الوالي وسأله الرفق باستاذه والسماح ببقائه عنده في حلب وقال «هذا كوالدي يا مولاي فأنا مكانه في قيد الاسر فافعل بي ما بدا لك

القانوني الفقيه

المرحوم الشيخ سليم باز

(١٨٥٩—١٩٢٠)

واعفُ عنه» . وما زال به حتى فاز بمراده وبقي الاستاذ في حلب الى المدنة راتعاً في بحبوحة الأمن والسكينة معجباً ببرذة تلميذه وشهامته في ظروف كان انهماكه فيها بعيالهِ وحالهِ يشغلهُ عن انهماكه في امور الناس

وليس هذا كلُّ حظ الانسانية منه . فانَّ حفظه للمعروف لم يكن فيه زيادة لمستزيد سواء صدرت النعمة من الاقارب ام من الاباعد . فدونك ما جرى لهُ مع شقيقهِ في مدينة قيرشهر (الاناضول) محلّ منفاهما : نزلت به النازلة الواقدة و كانت وطأتها عليهِ ثقيلةً فطارت قوة قلبهِ وكان عليلاً منذ سنين فخاف عليه شقيقه غدرَ الداء خوفاً شديداً فلزمهُ ليلاً نهاراً وقام يكافح العلّة بنشاط وثبات فشفاه الله بعد ان كان اليأس قد وقع في قلوب الجميع . وبينما كان في طور النقَه تذكّر ما بذله شقيقه من العناية به والعطف عليه فقال له : «بمَ اكافئك يا أخي» وطفرت الدمعة من عينه . قال « وعلى مَ المكافأة » فشهق وقال : « بالغتَ في العناية بي كالأم الحنون فشفيتني باذن الله ولم تدعني اموت في هذه الارض »

وكان المترجم ضليعاً (بالمعارف التاريخيَّة) . فكان في حافظته من اخبار السلف ما لم يكن اغزر منه عند غيره منْ علماء العصر ولاسيما من اخبار بلاده . فكان اذا روى خبراً لشبع الرواية واغنى السامع بدقّة سَرْدها عن طلب المزيد . زاره يوماً صاحب الفضيلة الاستف بولس ابي عضل واتفق في مجاري الحديث انه استوضحه خبراً تاريخياً من اخبار لبنان وتطرَّقا من ذلك الى اخبار شتَّى من تواريخ الامم الشرقية والغربية فطال جلوسهما ساعات وهو يسرد الحوادث بتواريخها وأسماء رجالها بدقةٍ نادرة المثال وحضرة الزائر الكريم يقول له : « اسكرتنا يا غالبنا باتساع مدارك فزدنا من نثر هاتهِ اللآلئ »

وكان يعرف من اللغات العربية والفرنسية والتركيَّة . اما معرفته اللغة العربية فمن طالع مؤلفاته يعلم مكانتهُ منها . اما اللغة الفرنسيَّة فكان من نخبة الكتبة فيها حتى ظنَّهُ مستشار عدلية بيروت فرنسيَّ الاصل لما رأى من بلاغة تقاريره وكُتبه اليه . ولما ان عرف انه لبناني لم يطأ ارض فرنسا زاد اعجاباً به وطلب ان يراه . اما التركية فقرأ قليلاً منها بمدرسة غزير ثم أكبَّ على التضلع منها بالدراسة والمطالعة بعد هجره المدرسة فنال منها حظّاً وافراً تشهد لهُ بذلك مؤلفاته التي كثير منها معرَّب عنها

وانشاؤه فيها لا يقل فصاحةً وبلاغةً من انشاء كتبة الاتراك المجيدين الا انه كان يتكلمها ببعض الصعوبة لعدم المران وقلة الاختلاط باهلها ولكن عبارته في التكلم كانت فصيحةً لذلك كان يتهيّن فيه تجنُّباً للسافل والعاميّ من الكلام . ولم يكن ليلوي عنان العزم عن طلب المعرفة في كل شيء

ومما نبغ به نبوغاً باهراً (العلوم الفقهيّة والقانونيّة) حتى ملأ اسمه المملكة وقد تنبّأت عن نبوغه أُمهُ وهو صبيٌّ لم يترعرع . وهاك تحرير الخبر . جلست يوماً رحمات الله عليها في بيت ابيها فالتفّ عليها بعض نسيباتها وأخذن يسألنها عن ولديها سليم وجرجي (١ وكانا اذ ذاك بمدرسة غزير للمرسلين اليسوعيين . فقلن لها : « جهدًا لكِ كيف تصبرين على فراق ولديكِ وليس عندكِ من الولد غيرهما . كيف ترضين العيشة بين اربعة حيطان دونهما » . قالت : « ليس لي اجرٌ عند الله غير هذا » . قلن : أصحيحٌ أنكِ تنفقين على تعليمهما خمسة آلاف غرش كل سنة . قالت : ورُبّما اكثر منها . قلن : « ويحكِ حرامٌ عليكِ هذا التبذير وانتِ قليلة الثروة . فتصبحين صفر اليدين وهم تعيشين . اشتري لهما بهذا المال توتةً وزيتونةً » . فضحكت وقالت : « التوتة والزيتونة يبيعانهما . اما علمها وصناعتهما فلا يقدران على بيعهما وسوف تَرَيْنَ ما سيكون من ولديّ . أما سليم فساعلمهُ الشريعة وسيكون بحول الله « قاضي القضاة وشيخ الفقهاء » . اما جرجي فساعلمه الطبَّ وسيكون ان شاء الله « ابقراط زمانه » وعندئذٍ هما يشتريان بجناهما التوتة والزيتونة » . فبلغ قولها هذا ولديها وهما في المدرسة فاشتعلا تحمُّساً واخذ منهما التأثر كل مأخذ لثقة والدتهما وشدة عنايتها بهما فقال صاحب الترجمة وهو الاكبر لاخيه : « هيّا بنا يا أخي نعقد العزيمة على مضاعفة الاجتهاد لنبلغ الشأوَ الذي يصوّرهُ الخيال لامّنا فنبيّض وجهها وندرأ عنها شمات نسيباتها »

ومن ذلك الحين شمّرا عن ساعد العزم وشدّا ركاب الحزم فنبغ السليم . كما تنبأت والدته وقد فسح لله في اجلهما (٢ فرأت بعينها « قاضي القضاة وشيخ الفقهاء »

(١) منشئ هذه الترجمة

(٢) عاش أبواه حتى رأياه مفتشاً لمدارس لبنان وعمّرت أُمهُ حتى رأته ضوءاً لامعاً في مجلس الشورى وفي لجنة الاشتراع وعاش كلٌّ منهما ثلاثاً وثمانين سنة شمتاً بكمال عقله وادراكه

وكانت كلما ذكر ولداها لمامها تقول: «اردُدْ من صبح فؤادي ان لا تلد لبنانيةٌ الّا مثلها» وكانت كلما رأت مولّداً جديداً «لقاضي القضاة» تضمّهُ الى صدرها وتقبّله وتقول: «هذه ثمرة التوتة التي سقيتُها حليب ثديي». ولما وضع اخوه كتاب «الروضة البديعة في تاريخ الطبيعة» وهو دون الثامنة عشرة من عمره اخذت منه نسخةً فضمّتها الى صدرها وبالغت في تقبيلها وقالت: «وهذه ثمرة الزيتونة». فالحمد لله الذي دفع عني الشمات وملأ قلبي فرحاً الى الممات». ومضت رحمها الله عداد حسناتها وهي تقول لولَديها: «طّموا اولادكم الادب كما علمتكم فالعلم كنز لا يصل اليه لص والعالِمُ زهرةٌ لا تلحقها ريح السموم والاديب نبراسٌ نوره لا ينطفئ».

اما والده فكان على جانب عظيم من الذكاء واتساع الرأي وحب العلم على كونه لم يحسن الّا القراءة والكتابة وكان اشدّ من امّه ميلاً الى تخريج ولَديه بالعلم والادب واوسع منها ثقةً بنبوغهما. نشأ في الاستانة وعاشر فيها كبار القوم فأخذ عنهم حسن المبادئ وقاد اخلاقه الى المحامد ومما يُعجَب به انه استظهر وهو في الخامسة والسبعين من عمره المعلّقات السبع وقصيدة بشر وكثيراً غيرها من قصائد الشعراء بتفاسيرها. وكان لتوقّد ذهنه وكثرة مطالعته عالماً بتواريخ كثير من الامم ولاسيما تاريخ لبنان وسوريا والامة العربية وقد وعى في ذاكرته كثيراً من الامثال والحكم. وله تاريخ صغير غير مطبوع عن حوادث لبنان ونفي الامير بشير عمر شهاب من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ سلس العبارة ناصر الغيرة على ما فيه من الاغلاط اللغوية لعدم المامه بقواعد اللغة

حياة الفضائل

كان فيها مثال الجدّ والاستقامة وعفّة الذيل وكان اينما حلّ اخلصَ الخدمة لوطنه وحكومته. اشتغل في بدء الامر بالمحاماة ولم يطل عليه الزمن حتى بزغت شهرتهُ واخذت تنمو وتسير في فلك القضاء سيراً حثيثاً وبعد ان خَبَرَ احوال القضاء والحكومة الادارية في لبنان رأى فيها من الخلل والنقص ما دفعهُ الى وضع تقرير سهب بذلك مستفرغ في مهمّه جهده وابان فيه مواضع العيب والضعف والسبيل الى الاصلاح مستعيناً بتاريخ البلاد والتقاليد التي يحسن بواليها ان يجري مجراها للوصول

الى الغاية المنشودة ورفع هذا التقرير باللغة الفرنسيَّة في ربيع سنة ١٨٧٧ الى والي البلاد رستم باشا فدُهش الوالي لما جاء فيه من بيان غرلمضي خفيت عليه مع تحريه الدقيق للمسائل الادارية ومن الخطة السديدة التي جعلها الكاتب سبيلًا الى الاصلاح ومن بلاغة الانشاء ومن الجرأة التي كتبه بها. فاستقدمهُ اليه وكان يظنُّه كهلًا لما رأى في التقرير من روح الرزانة وسديد الرأي وقوة الحجَّة ونُضج الخبرة. فلما دخل عليه تفرَّس فيه فرآه لا يزاحم العشرين من العمر فزاد اعجاباً به وبالغ في تكرمته وقرَّبه اليه وحادثه طويلًا ثم قال لهُ: «وجدتك يا باز في غير موضع ظني بك. فانت اصغر سنًّا واكبر عقلًا واوسع علماً وادباً مما سبق وهمي اليه ولم يطلعني احد من مواطنيك على ما اطلعتني عليه بتقريرك النفيس من الخفايا وما ارشدتني اليه من طُرُق الهداية فسأسترشدك في اصلاح حالة القضاء والحكومة الادارية».

وفي اواخر تلك السنة (١٨٧٧ م) شكا قائمقام جزين الى المتصرف قاضي المحكمة وسأله نزْعه ونَصْبَ صاحب الترجمة محلَّه فقال له: «هذا غاية ما اريد الَّا انهُ يحول دون ذلك سنُّهُ فأرى ان افتح له باب الِمران بوظيفة نائب ثم ارفعه الى مرتبة القضاة». واتفق اندخول على المتصرف في تلك الساعة قائمقام الشوف وسأله عزل النائب من محكمته ونَصْبَ غيره من ذوي الاهلية فاجابه في الحال الى سؤاله ونصب الباز نائباً لقاضي محكمة الشوف في ٧ كانون الاول سنة ١٢١٥ (١٨٧٧م) (١).

ولما استقلت ولاية رستم باشا عن لبنان وجاء سُنَّه واصه باشا دفع اليه تذكرةً فيها ما يسترشد به الى تدبير الشؤون بالخطة التي وأطلعه على تقرير الباز ليتمّ هو ما لم يتيسَّر له استتمامه من الاصلاح المحكيّ عنه فيه ووشَّاه بصاحبه وسأله ان يرقّيهُ في القريب العاجل ووصفه له بالمعرفة والذكاء. فاستقدمه اليه واصه باشا ونصبه قاضياً على جزين في ١٧ اوغسطس سنة ١٢٩٩ (١٨٨١م) ثمّ نقلهُ في ٦ اوغسطس ١٣٠١ (١٨٨٣م) الى محكمة دير القمر وفي ٢٢ مايس ١٣٠٣ (١٨٨٥م) الى محكمة البترون وفي ٨ اغسطس ١٣٠٥ (١٨٨٧م) الى محكمة المتن وفي ٢١ حزيران سنة ١٣٠٦ (١٨٨٨م) الى محكمة كسروان واستقال منها في ١ ك ١ سنة ١٣٠٨ (١٨٩٠م) فانقطع الى المحاماة والتأليف واقام بمدينة بيروت وكان لسمه فيها ملءُ جوانبها

(١) كانت محاكم لبنان في ذلك العهد مؤلفة من قاضٍ ونائبٍ وكتبةٍ

فرأى فقهاؤها نوره عن كثب فالوا اليه والتفوا عليه فبهرتهم معارفه وتوارد اليه اصحاب الحاجات وطلبة الفقه من كل صوب فزها مجلسه بالفضلاء والادباء وصار يشار اليه بالبنان . لمّا اصحاب الدعاوي فاخذوا يتهافتون عليه تهافت الفراش على السراج فكان يبذل العناية في التوفيق بين الخصمين دون المحاكم ولم يكن ليُحجم قط عن قبول التحكيم بينهما . وبقي على هذه الحال يصل الليل بالنهار منكبًا على التأليف والدراسة الى ان جاء مظفر باشا والي لبنان السادس وفي نيته ان يُحدث وظيفة جديدة لاصلاح العدلية . فسأل مَن اكفأ فقيه في البلاد فدُلّ عليه وذُكرت له مؤلفاته ومقدرته ونزاهته فضمّه اليه . ولمّا ان جالسه وسبر غورَه رأى من مبلغ فهمه وعلمه وادبه ورزانته فوق ما سمعه عنه فأسند اليه « منقشية » العدلية ولم يكن لها رسمٌ في لبنان الى ذلك العهد فتقلدها في ٧ تشرين الثاني سنة ١٣١٨ (١٩٠٠م) فأدّاها الواجب من الاخلاص

ولمّا شاع خبرها توسّم الناس فيها خيرًا ولاسيما لمّا ان عرفوا أنها أُسندت الى الباز فقالوا « أُعطيت القوسُ باريها » فأخذ على الله عنه يرتّب المحاكم وينظّمها ويقوّم ما اعوجّ منها ويرشدها بمُحكم إرشاده وصحيح تعاليمه وسديد نصائحه . وصار رجال العدلية يحسبون له حسابًا . ويكبّون على العمل أضعاف ما كانوا عليه من قبلُ فأصبحت العدلية في قصير من الزمن كأنها الروضة الغنّاء خلت من أشواك « الرشوة » وطحالب « المراءاة » وبذور « الكسل » وداء « المطل » . فصارت المحاكم تُقضى سريعًا . وزِدْ على ذلك أنه أمات من المحاكم روح التعصّب الديني الذميم وجعل فيها روح العدل الصحيح المجرّد . وكفّ يد القائمقامين عن التدخّل في شؤونها وقد كانت من قبل مَلعب أهوائهم تصدر الاحكام بحسب ما يشاؤون ولاسيما في الدعاوي الجزائية

أجل . وفي تلك الغضون قامت على مظفّر باشا بعض الاحزاب تندّد بما احدث وتُقرّع بما أصلح لغايات شخصية لم يظفر بها اصحابها فكدّروا صفاء الراحة وعكّروا مجاري الامور بما جرّكوا فيها من أوحال الدسائس وأقذار المقاصد الى ان اتّسع الخرق عليه بما خلق له اعداء الإصلاح والصلاح من المشاغب والمشاكل فرأى الإحجام عن كل اصلاح في لبنان أولى من العراك . فهدم ما كان قد بنى وفي جملته « منقشية » العدلية وذلك في ١٥ ايلول سنة ١٣١٩ (١٩٠١م) تتأمل

ولما ان هدأ بال مظفر باشا من تلك الهزة السياسية عاد فاستقدم الباز اليه في غرة كانون الاول من تلك السنة ونصبه مدعياً عاماً لحكومة جبل لبنان فكان في منصبه الجديد كما كان في غيره مثال الرجل الكامل بعلمه وفضائله وكانت قد عظمت شهرته وعلت منزلته عند رجال العدلية فطلبوا نصبه عضواً في مجلس الشورى فنُصب بارادة سلطانية في ٥ اغسطس سنة ١٣٢٩ (١٩١١ م) في دائرة التنظيمات منه . الا انه لاسباب صحية مهمة ولّدتها برودة المناخ في الاستانة اضطرّ الى الاستقالة من هذا المنصب الرفيع بعد عشرة اشهر من توليه فعاد الى لبنان وأخلد الى الراحة الى ان أبى من سقمه بحول الله فاعاده والي البلاد الى منصبه — الادعاء العام — وجعله مستشاراً قضائياً لكل دوائر الحكومة

اما منزلته في مجلس شورى الدولة وعند رجال عدليتها واركان حكومتها فكانت ارفع منزلة يشتهيها . فانه كاد لا يستقر به المقام حتى اخذت تتوارد اليه ارباب المقامات الرفيعة لخطب ودّه والاعجاب به . ولما ان زار وزراء الدولة وصدرها الاعظم ورئيس محكمة التمييز العليا ادهشهم بواسع علمه ودقة فهمه وسديد رأيه فسماه رئيس الشورى « دائرة المعارف » لشارة الى اتساع معلوماته . وفي تلك الاثناء عزمت الحكومة العثمانية على تنقيح قانون الجزاء وقانون المحاكمات الجزائية فعرضت عليه لائحة وسألته تنقيحها فنقّح منها مئة مادة رفعها الى وزير العدلية فوافقه على تنقيحها اعضاء اللجنة تمام الموافقة واثنوا عليه مع الوزير اطيب الثناء وكان لعمله هذا رنّة في مراكز العدلية رجع صداها الى كل دوائر الحكومة فسمت مكانته في عالم القضاء ونصبته الحكومة عضواً عاملاً في لجنة تنقيح المجلة وكان لم يزل عضواً في مجلس الشورى . وقد استدعاه يوماً اليه وزير العدلية وسأله التمسك برأيه اذا عارضته اللجنة ورفع ذلك اليه . فانفرد في تنقيح بعض المواد وكان الصواب في جانبه فأيدتها العدلية بتمامها

وبقي مدعياً عاماً لحكومة لبنان ومستشاراً لعدليتها ومجالسها الادارية والتنفيذية والعسكرية يُرجع اليه بمعضلات امورها الى ان وقعت الحرب الكونية واخذ جمال باشا قائد الحملة السورية يُجلي رجال لبنان ولاسيما الطائفة الراقية منهم فكان هو وعائلته في جملة المجلَين الى مدينة قيرشهر من ولاية انقره كما سيأتي .

ولما ان لتيسمت له الأوبة الى الوطن شدّ بعائلته الى العاصمة حيث احتفى به رجال الدولة وكرّموه تكريماً بليغاً وبينما كان فيها موضوع احاديث العلماء والفقهاء كان المندوب السامي للحلفاء في بيروت يسأل عنه باهتمام فقيل له: «لم يَعُدْ بعد من الجلاء» فلما عاد وتقابلا ابلغه المندوب وكان السيد بيكر ان مركزه في حكومة لبنان لم يزل محفوظاً له الى ان تستقيم حال الحكومة فيكون له المنصب الاول في عدليتها. فعاد الى منصبه في حكومة لبنان—منصب المدعي العام—في اول شباط سنة ١٩١٩م وبقي فيه الى الوفاة. وقد كان رحمه الله أبان وجوده في الحكومة اللبنانية مستشارًا لقضاتها وولاتها وكل دوائرها. يقف الجميع عند قوله ورأيه ولا يقطع الولاة امرًا دونه. وكانت ثقة الناس في صدقه واخلاصه لوطنه وحكومته تامّة ثابتة وقد كتب عنه مجلس النواب اجابةً الى طلب والي البلاد بمناسبة نصبه عضوًا في شورى الدولة ما يأتي:

«لدى الاستعلام من قلم المحاسبة تبيّن ان مدة خدمة سليم افندي باز احدى وعشرون سنة وستة اشهر واربعة ايام وانه تدرّج في وظائف العدلية من معاون رئيس محكمة في قضاء الشوف البدائية الى رئيس محكمة جزين فقدير الفسر فالبترون فالمتن فكسروان ثم عُيّن مفتشًا للعدلية ثم مدعيًا عامًا الى ان استقال مؤخرًا من هذه الوظيفة وقد كان في جميع هذه الوظائف مثالًا للجد والاجتهاد مرموقًا بالامانة والنزاهة مشهورًا بمعارفه الشرعية والقانونية وفضلًا عما له من الخدمات الجلّى في جانب حكومة جبل لبنان فان له عدة شروح وتراجم ومؤلفات فقهية وقانونية الامر الذي اناله شهرة واسعة واكسبه رضى اولياء الامور وعليه فالمجلس تقديرًا لحسن خدماته قد اصدر مضبطةً هذه لتسلم اليه نسخة عنها مصدق عليها تبقى بيده الى وقت الحاجة اليها وبكل حال الامر والفرمان لحضرة من له الامر في ٢٧ رمضان سنة ١٣٣١ و١٧ اوغسطوس ١٣٢٩ (سنة ١٩١١م)

(رئيس المجلس)
حبيب السعد

اعضاء المجلس الياس شويري محمد صبرا فؤاد عبد الملك محمود جنبلاط داود عمون سليمان كنعان نعوم جبرائيل باخوس خليل عقل مصطفى الخوري حسين الحجار محمود الحاج حسن يوسف بريدي نقولا غصن

وكان القضاء بلبنان في اسوإ حال من الضعف والخلل وجهل القوانين لصدورها اليه باللغة التركية وهي غير لغة البلاد فشمّر عن ساعد الجدّ وانكبّ على تأليف

الكتب وتعريب القوانين والاحكام العدلية وشروحها على نمط متسع المجال غزير المادة لم يسبقه اليه احد من رجال هذا العلم . ولما كان مفتشاً للعدلية ومدعياً عاماً نظّم المحاكم فقوّمها وهذّبها بتعاليمه وارشاداته فرقّاها ورفع منارها وسهّل لها العمل بما وضعه من المؤلفات والشروح حتى سار مسيرها سائرُ المحاكم في السلطنة العثمانية . فكنتَ ترى مصنّفاته في محاكم الاناضول واقصى البلدان كما تراها في محاكم الاستانة ولبنان . وكادت لا تنشأ الحكومة الوطنية في الشام والقدس وحلب وسائر البلاد العربية حتى اقبل رجال القضاء وطلبة الفقه على مؤلفاته إقبال الظمآن على ورود الماء . وقد بيعت مؤخراً النسخة الواحدة من شرحه للمجلة باثني عشرة ليرة مصرية لندرة وجودها . فيا حبذا لو ساعدت الحكومة ورثتهُ في استئناف طبعها احياء لهذا الاثر النفيس

وكادت لا تطير شهرتهُ في علم الفقه حتى اقبل عليه الطلبة من كل صوب فتخرّج عليه كثيرون من شبان الوطن فترى كثيرين من تلامذته طائري الشهرة اليوم في عالم القضاء وكثيرون منهم يُشغلون بفضل استاذهم وتآليفه مناصب عالية في البلاد وكلهم ألسنة ناطقة بسموه وادبه

ومن حميد اثاره في عدلية لبنان انشاؤه : اولاً وظيفة كتبة العدل (النوتر ريّة) في مراكز « القائمقاميات » ومعاونيهم في مراكز « المديريات » تسهيلاً لقضاء الحاجات وقد كان يحول دونه بُعد الشقة ووفر النفقة . ثانياً وظيفتا المستنطق والمدعي العام في المحاكم البدائية — ولم تكن لها من قبل صفةٌ رسمية — ثالثاً محكمة الصلح السيارة في كل « قائمقامية » تتناوب الاقامة في نواحٍ مختلفة ليسهل على الناس الوصول اليها في دعاويهم بلا مشقة ولا نفقة

ومن مشكور اعماله ايضاً حلّ مشاكل بعض الحوادث التي كان يعجز عنها قضاة التحقيق وكثيراً ما وقع لهم ذلك في عهده اذ لم تكن تخفى عليه خافية او تغيب عنه غائبة . والحق يقال انه هو الذي نهض بالقضاء من خموله وبثه من سُباته فنشر القوانين بلغة البلاد وشرحها وعزّز الحكام ورفع منار العدلية وسهّل للناس قضاء حاجاتهم ولطلبة علم الفقه سُبل الوصول اليه من طريق الايجاز الوافي دون التطويل المخلّ الخافي وحقّق آمال والدته القائلة انهُ سيكون « قاضي القضاة وشيخ الشيوخ »

ولما ان تشكلت عدلية بيروت الجديدة بعد الاحتلال الاجنبي اهتمت الحكومة بنقله من وظيفة الادعاء العام بلبنان الى منصب عالٍ في عدلية الدولة الجديدة الا ان والي لبنان السيد لابرو استبقاها ريثما يحل بعض المشاكل وينظم بعض القوانين وفي جملتها القانون الاساسي للدولة الجديدة — دولة لبنان الكبير — وما قال لها مشيراً الى خدم المترجم: «أفي مثل هذه الآونة تقطعين يدي اليمنى؟»

وكانت الدولة العثمانية سبقت وقدّرت قدره فأحلّته المحل الرفيع من الكرامة وزانت صدره بالاوسمة العالية منها المجيدي الثالث والثاني والعثماني الرابع والثالث واضافت الى ذلك دولة فرنسا وسام المعارف. وكانت حكومة الانتداب قد طلبت له من حكومة باريس وسام جوقة الشرف (اللجيون دونور) اعترافاً بما اخلص من عظيم الخدمة لوطنه الا ان المنية باغتته قبل ان ترى عيناه اكليل المجد الذي ضفره له جهاده الطويل في خدمة المصلحة العامة فمضى رحمه الله والوسام في الطريق. ولما صافح السيد لابرو والي الجبل اخاه معزّياً اعرب له عن شديد اسفه وقال: «وددتُ لو فسح الله في اجله ريثما يحل الوسام الا ان لا بدّ من وصوله ولئن كان الفقيد خالداً من دونه بعلمه وعمله» ولكن لسوء الحظ الى اليوم لم يحل ذلك الوسام.

وكان يرُد الله ثراه متّسع الرأي والتدبير في الامور الادارية والسياسية ولاسيما سياسة البلاد ولذلك كان الولاة والنوّاب يعوّلون عليه في فضّ المشاكل وتدبير الشؤون. من ذلك ان متصرف لبنان مظفر باشا وواحد من قناصل الدول في بيروت اختلفا يوماً لامرٍ سياسي وكاد يتسع الخرق بينهما لولا ان الباز ارتأى لها حلاً كان فيه فصل الخطاب. ولم يكن اقلّ اتساعاً في معرفة تواريخ الشرق والغرب. كتب اليه مرةً مؤلف فرنسي كان آخذاً بوضع ترجمة استير استنهوب (١ الانكليزية المشهورة يستوضحه بعض امور متعلقة بها ويسأله ما عنده من الاخبار والقصص عنها ولا تعارُف سابق بينهما فكتب له مقالات كثيرةً عنها الأمان المؤلف لم ينسب الا القليل منها اليه ومن المحتمل ان يكون قد عرف الباقي من مصدر آخر

١) هي بنت اخت «بيت» وزير انكلترة الشهير الذي كان من ألدّ اعداء نابوليون الاوّل. خرجت من بيت عظيم الثروة وهي حذراء فأمّت الشرق على سفينة بخارية خاصة ملؤها من التحف والهدايا ما يعجز القلم عن وصفهِ وذلك في اواخر الجيل الثامن عشر فطافت فيه وسمّت نفسها ملكة تدمر وقضت ايامها الاخيرة في قرية جون فوق صيدا وماتت ودفنت فيها

مؤلفاته

باكورة مؤلفاته « مناجاة البلغاء في مسامرة البيغاء » روايةٌ غرامية لطيفة عربها بتصرف من التركية حوالي سنة ١٨٨٢ ثم حام خاطرهُ على التأليف وهو في السادسة والعشرين من عمره فمال اليه بكليته على مكانه من الحاجة الى انتحال العاش تارةً بالمحاماة وتارةً بالوظيفة . فراض الصعاب حتى اذلّها وانعكف على التأليف لا يألو جهدًا في مثابرته ليلًا ونهارًا . امّا مؤلفاته الفقهية فاشهر من نار على عَلَم نعيد ذكرها هنا تعميماً للفائدة فنقول :

شرع في شرح المجلّة سنة ١٨٨٥ فاتمّهُ وطبعهُ سنة ١٨٨٩ على انهماكه بشؤون المحاكم التي كانت تتوالى طيها رئاسته . وما هو الّا ان ظهر هذا التأليف الجليل الى الوجود حتى انهالت على صاحبه التقاريظ من علماء الفقه (١ معجبين بدقّة شرحه وبلاغة بحثه وسلاسة عبارته حتى ظنّه احد اساتذتهم شيخاً مسلماً طاعناً في السنّ . وتحرير الخبر ان ذاك العالم كان يلقي على تلامذته في مكتب الحقوق بالاستانة بحثاً تضاربت فيه الاقوال فقال لهم بعد ما جال في ميدان البحث جولةَ العالم الخبير والمدقق التحرير : « لم أرَ قولًا اصحّ ولا رأياً اسدّ من رأي الشيخ باز فخر الاسلام والقضاء في شرحه المجلة . مثل هذا ينبغي ان يعوّل عليه » . وكان في جملة النجباء الموما اليهم سعيد بك زين الدين المدّعي العام بمحكمة التمييز في حكومة لبنان الكبير فضحك . ثم خلا بالاستاذ وقال له : « ليس الباز شيخاً طاعناً في السن كما خُيّل لجنابك ولا هو مسلم بل هو نصرانيٌّ من جبل لبنان دون الاربعين من العمر » فقال والدهشة ملء عينيه : « وهل يبلغ المسيحيون في بلادكم هذا المبلغ من العلوم الفقهية والمعارف الشرعية » قال : « نعم والباز الدليل » ولشرق محيا سعيد بك افتخاراً بابن بلاده حتى ودّ لو أنّ له جناحاً كالباز فيطير اليه بالخبر

ولما أن نفدت الطبعة الاولى من المجلّة لبّى سؤال كثيرين فاستأنف طبعها سنة ١٨٩٩ بعد ان نقّحها وزاد عليها من الشروح والتعاليم ما احلّها المحلّ الاول بين كتب الفقه . وقد نفدت هذه الطبعة الثانية من نحو ثلاث سنوات فأعدّ الطبعة الثالثة وزيّنها بما

(١ = انظر اول الطبعة الثانية من المجلة

تفضل به سالفتيها ففاجأته المنية قبل طبعها

ثم شرح قانون المحاكمات الحقوقية وطبعه سنة ١٨٩٥ وثنّى طبعه سنة ١٩١١ بعد ان هذّبه وزاد عليه وقد صارت الطبعة الثانية على وشك النفاد . اما هذا التأليف فأحلّه علماء الاستانة كشقيقه السالف الذكر محلًا رفيعاً ايضاً واخذ عنه كثيرون منهم بل نقلوا قسماً واسعاً منهُ بحرفه الواحد . وكاد لا يُتمّ هذا التأليف حتى شرح قانون المحاكمات الجزائية شرحاً بديعاً منقطع القرين عدَّهُ جمهور علماء القوانين من اسمى التصانيف في نوعه وطبعهُ سنة ١٩٠٥

ثم ألّف وطبع سنة ١٩٠٩ كتاباً مختصراً في علم الفقه غزير المادّة جزيل الفائدة سماه «مرقاة الحقوق» فهو والحقّ يقال كتاب جليل يحتاج اليهِ كلُّ من يريد ان يعرف ما لهُ وما عليهِ من الحقوق . فيا حبذا لو جعلته المدارس العالية في نطاق تعليمها

وقبل الحرب الاخيرة عرَّب عن التركية قانون الجزاء وشرحه شرحاً وافياً وذيّله بتعريب القوانين والانظمة التي سُنّت لبعض العقوبات لعلاقتها به وطبعه سنة ١٩١٦ . وعرَّب ايضاً جميع الانظمة والقوانين الخصوصية وكتباً عديدةً غيرها لم تطبع وهي لم تزل محفوظة في خزائن كتبهِ

وله فضلًا عن ذلك في جريدة العدلية فصول فقهية وقانونية رائعة المباني ضافية الذيول كتبها اجابةً لاقتراح وزارة العدلية في الاستانة في تاريخ ٢٢ كانون الاوّل سنة ١٣٢٥ (سنة ١٩٠٥م) . وعرضت عليه الوزارة المذكورة لائحةً في بعض المواد من قنوني الجزاء والتجارة تسأله رأيه فيها فجاءها سديداً فاحأته محل الاعتبار ووضعتهُ موضع الاجراء . ولو عددنا ما للفقيد من التآليف والتعريبات العديدة المطوّلة والقصيرة لبلغت الاربعين عدًّا طبع البعض منها في ذيل كتابهِ قانون الجزاء والبعض على حدةٍ والبعض الآخر لم يزل غير مطبوع

لما جلا جمال باشا قائد الحملة السورية بعض الأُسر اللبنانية الى بلاد الاناضول وجُنّه في جملتها بمياه لمثال المجرمين . ولما ان قرُب يوم الرحيل وكان التوم في نزل طاليه فرّقت فيهم الحكومة مالًا لنفقة الطريق فترفّع هو واخوهُ عن قبول شيء منه

على مكانتهما من الحاجة اليه . ولم يبعد القطار كثيراً عن « عاليه » حتى أفاقت الحكومة من غفلتها وتذكرت ان مؤلفاته بين ايدي قضاتها يُطلقون الاحكام من محاكمها مُستندةً الى شروحه واقواله وآرائه فطيّرت على اجنحة البرق الى ولاة المدن التي في طريقه أن : « كرموا الباز عالم المملكة الكبير فان احوالاً سياسية ليس الّا قضت بابعاده موقتاً » (١ فكان اينما حلّ طوّفه والي البلد بالتكرمة التي هو اهل لها وقرّبهُ اليه واوسع له في مجلسه . وكثُر ما نفع بتلك المنزلة من الكرامة غيرهُ من الرفاق فكانت لهم غُنماً في ارض الغربة . اما في منفاه فلقي من متصرف قيرشهر حيث كانت اقامته مع اخيه ورفاقه ومن اكابر موظفي الحكومة واعيان المدينة من الحفاوة والاحترام ما لم يزده الّا تواضعاً وزهداً

ولما استقر به المقام عاد الى بَذل مهجته في المطالعة والتأليف لانه كان يأنف الفراغ الّا ان إبعاده عن وطنه حطّ كثيراً من همّته لتألُّم نفسه . وعرفتْ حكومة قيرشهر واعيان موظفيها وسكانها مكانته من الفضل فانصرفت وجوههم اليه . ولما ان زارهُ لاول مرة رجال عدليتها قالوا له : « نحن نعرفك يا استاذنا من زمن طويل » فقال : « لا اذكر انه جمعنا مجلسٌ قبل اليوم » فاستدرك المدعي العام « علي نظمي بك » وكان اوسعهم علماً واعلاهم مقاماً وقال : « نحن نعرفك بتآليفك النفيسة التي بين ايدينا » . فتبسّم رحمات الله عليه وقال : « وهل تعرفوني بها من زمن بعيد » قالوا : « من يوم ولادتها وكنا ننظر الى مؤلفها الفاضل بعين الوهم فما لسعدنا اليوم ان نراه بعين الحقيقة » . اما علي نظمي بك فكان اقرب الناس مكاناً الى التحرف وكان نافذ الكلمة ذكي الفؤاد يرأس فرعاً من جمعية الاتحاد والترقي فعلى مكانته هذه كان كلما رأى صاحب الترجمة تحفّز للثم يده ولم يكن يدعوه الّا « بالاستاذ الاكبر »

ولما ان مرّ طلعت باشا رئيس الوزارة العثمانية بمدينة قيرشهر سنة ١٩١٨ وكان ينقّب عن احوال الاناضول استأذن عليه اللبنانيون فاذن لهم . فلما دخلوا عليه وكان يحيط به متصرف البلاد وكبراء العمّال احتفى بالباز غاية الاحتفاء . وقرّبه منه

(١ هذا ما قال امر جمال باشا ذكرهُ ولاة حلب واقره وغيرهما لصاحب الترجمة يجب مروره جا

وصرف اليه وجهه بالحديث ودعاه مراراً بفخر القضاء ثم التفت الى المتصرف وقال: « هل انتم عارفون قدر الباز وهل مؤلفاته الجليلة كلها في محاكمكم . هل اسكنتم بيتاً مليحاً وهل اوسعتم له في الاثاث والرياش ويسّرت له اسباب الراحة التامة . وهل زرته . . . » فاشرأبت اليه الاعناق وحدّق اليه القوم وملأ عيونهم الاعجاب بما رأوا من مكانته عند رجال السلطنة العظام . وفي تالي الايام جلس الوزير الاعظم للناس في رواق القصر وكان يحفّ به المتصرف وكبار رجال الحكومة بعضهم جاوس وبعضهم قيام فلاحت منه التفاتة الى شمالهِ فرأى الباز واقفاً فصاح بخادمه على مسمعٍ من الجميع أن: « عجّل بكرسيّ الى باز افندي » . وهذا ايضاً ألفتَ الانظار اليه . وكانت الحكومة العثمانية بناء على طلب اصدقائه في العاصمة قد فسحت له دون غيره في الانتقال من قيرشهر الى آطه او الاستانة فآثر البقاء في مكانه لكي لا ينفصل عن اخيه ورفاقه وفي اواخر سنة ١٩١٧ نصبته عدلية الاستانة عضواً في محكمة التمييز العليا وسألت جمال باشا ارساله اليها فأبى بحجة انه مجلّى عن بلاده لاسباب سياسية الا انه صوّب نصبه ووافق الحكومة على انهُ واقعٌ في اهلهِ واستمهلها في تحقيقهِ الى ما بعد الحرب . وقد ابلغه ذلك وزير العدلية الى قيرشهر بقلم الاستاذ الشهير الياس افندي رسّام

موقفه لدى الانتداب الفرنسي — وفاته

سبق الاالماع فيما مرّ من الكلام الى ان صاحب الترجمة أعيد الى منصبه بلبنان حال عودته من الجلاء فلم يبعد بهِ العهد طويلاً حتى قدّره قدره والي البلاد وكان في ذلك الوقت السيد لاپرو الفرنسي فادناه منه ومال اليه وجعله مستشاراً له ولكل دوائر حكومة لبنان (قبل اعلان الاستقلال) . وقبل وفاته بيومين رحمه الله سأله الوالي المذكور ان يضع القانون الاساسي للسلكة الجديدة (لبنان الكبير) وان ينجزه في شهر من الزمن فضحك وقال: « أمع شواغل الوظيفة تؤمل يا حضرة الوالي انجازه في شهر من الزمن ؟ كانك تجهل ما هو القانون الاساسي . فلو تجردتُ عن الوظيفة اليه لما أتيت عليهِ في اقل من شهرين » قال: « تدبّر اذاً الامر كما تريد » وكان ذلك صباح السبت في ٢٩ نوار سنة ١٩٢٠ فبدأ بالقانون الاساسي مساء ذلك اليوم—

الى الهجة الثانية من الليل واستمرّ على التحرير والتحبير يوم الاحد الى قبل الظهر بنحو من ثلاث ساعات. فدخل عليه صديقه صاحب السيادة الإسقف بولس اني عَضَل كما سبقت الاشارة اليه فاخذا يتجاذبان اطراف الحديث الى الهاجرة ولم يُتَح له استئناف التأليف الّا في الساعة الثانية بعدها فأكبّ عليه الى الهجة الثانية ايضاً ونام. وكانت جملة ما كتب منه في بضع وخمس عشرة ساعة ثلاثاً واربعين مادة. ولما ان اصبح كجري عادته دخل مخدعه واسرج للكتابة ففاجأته المنيّة على غرّة. فمات كالجندي الباسل شهيد الواجب في خدمة الوطن والقلم في يده وكان ذلك في حدّث بيروت نحو الساعة الرابعة من صباح الاثنين في ٣١ ايار سنة ١٩٢٠

ولما انتشر منعاه في البلاد شمل الاسف رفيعها ووضيعها وتزاحم القوم على بابه يأسون عائلته ويعزّون والكآبة ملءُ صدورهم ووجوههم. ثم نُقلت جثته الى دير القمر موطن اجداده ودُفنت في الضريح الفخيم الذي ابتناه لزوجته الاولى رحمات الله ورضوانهُ عليهما. وهناك ايضاً توارد الناس افواجاً افواجاً الى قصر الشيخ جرجس باز احد احفاد الفقيد لمشاطرة اسرته الكريمة الحزن والاسف. وبينهم حضرة الاستاذ الشيخ سليم علم الدين. فروى ان الاسف عليه في بعقلين يعجز عنه الوصف وان جمهوراً كثيفاً من رجالها اقاموا له مناحة مؤثرة فحملوا نعشاً مزدانا بالازهار واخذوا يطوفون الشوارع بالندب والنواح حتى استناحوا كل اهل البلدة قال: «وخرجتُ من بعقلين والدمعة في عيني ولم أرَ قط مناحة مؤثرة مثلها» وكان صراخ هذه المناحة والحالة هذه مسموعاً الى قاعات القصر حيث كانت الجثة. ورثاه الخطباء والشعراء وبكته المطابع والمحابر والجرائد على اختلاف نزوعها. وقالت الأمهات لاولادهنّ: «كدّوا وجدّوا كما جدّ الباز لتصلوا الى ما وصل اليه من الفخر». وتسابق تلامذته الى طلب اقلامه تيمّناً وتفاؤلاً ... وأبّنهُ شقيقه بمقال يبكي الجماد وينتّت الاكباد

وكانت مدة توليه المناصب في العدلية احدى وعشرين سنة وستة اشهر وكان بعد الله يُرى فوق الرّيعة من الرجال معتدل القامة ابيض اللون عريض الجبهة اشقر الشاربين وديع النظر انيس الطلعة ذكيّاً كريماً جليداً على الشغل أبيّ النفس سليم القلب

صادق المقال خفيف المئزر جريئاً في الحق قاضياً للحاجات واسع المعارف لا يملّ سامعهُ من كلامهِ لليونة سَداته وبساطة لُحته . وكان فوق كلّ ذلك عريقاً في الدين مواظباً على فرائضهِ مكرّماً لأربابهِ

تزوج في قومه فاقترن في ٦ ايلول سنة ١٨٨٤ بدميانة ابنة قريبهِ سعيد باز حفيد الشيخ جرجس باز الشهير في تاريخ جبل لبنان فرُزق منها غلامين وبنتاً هم يوسف المدعي العام في محكمة كسروان — ورشيد ومريم زوجة يوسف بن سليمان ثابت من دير القمر وتوفّاها الله في السابعة والعشرين من عمرها في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٩٥ وكانت رحمها الله بارعة الجمال دمثة الاخلاق طاهرة الذيل . ثم اقترن الفقيد بعد وفاة قرينتهِ بشقيقتها امليا في ١٦ شباط سنة ١٩٠١ فولدت له رستم وعبد الاحد وأسما ولوسيا وسعدا . اما هذا الاخير فكان عمره يوم وفاة ابيه سبعة اشهر فقط

وكان حقّنا ان نورد هنا اقوال عظماء الرجال في فقيدنا ومكاتباتهم اليهِ في حياتهِ وما نشرتهُ الجرائد في اطرائهِ عند وفاتهِ وما قيل في تأبينهِ اجزل الله ثوابهُ الّا انّ مجموع هذه الاقوال يقتضي الصفحات المطوّلة ولعلّنا ننشر هذه الآثار في كرّاس خاصّ فترى هناك رسالات لوزراء كالفقيه نجم الدين باك وزير عدليّة السلطنة العثمانيّة وكاحمد جودت باشا وزير العدليّة والمذاهب فضلاً عن تقاريظ لاصحاب الكرامة والسيادة كاستاذه الفاضل المغفور لهُ الاسقف الجليل يوحنّا الحبيب وكالشيخ محمّد عبده الشهير مفتي الديار المصريّة والشيخ ابرهيم الاحدب والشيخ ابرهيم الفتّال والسيّد عبدالحميد الرافعي والشيخ عبد الغني البارودي والشيخ نوفل قنصوه الخازن ويا حبّذا لو تكرّم علينا الخطباء والكتبة والشعراء والصحافيون بما كتبوا من العقيد لتضمّهُ الى ترجمة حياته الكاملة التي ستطبعها على حدة ان شاء الله

هذه هو الرجل الذي بكيناه وبكاه القضاء بكاء الثكلى . فلا ننسى ما نسينا ما ألمّ بنا من فرط الحزن عليه يوم نزلت في ساحة الفقه الملّة الكبرى . ما نسينا وأيم الحق حزناً اخلمت لشدة لوعته قلوبنا . ولا فاجعةً منا خمدت الى اليوم نارُها في صدورنا . بكينا الشقيق العزيز بمحمر الدموع . وتقوّضت لهول تلك الرزيّة فينا حنايا الضلوع . وانطلق لسان الأدب يقول :

فوا أسفي لو يقبل الموت فديةً فديناك بالنفس العزيزة يا « سليم »